لمحة عن الصراع الجزائري الإيطالي خلال العهد العثماني

أ/ إبراهيم سعيود

قسم التاريخ
كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية
جامعة الجزائر

الملخص:

هذه المقالة هي دعوة لاكتشاف بعض المناحي المجهولة في تاريخ العلاقات الجزائرية الإيطالية خاصة وأوروبا عامة، فخلال ثلاثة قرون – بداية القرن السادس عشر إلى الثلث الأول من القرن التاسع عشر – من العلاقات تخللتها صراعات وحروب بين المغرب الإسلامي الذي كان في موضع الدفاع عن كيانه وعقيدته، وأوروبا التي جندت كل إمكاناتها لأجل السيطرة عليها .

وفي مقدمة أوروبا المتغطرسة، تأتي الدويلات الإيطالية وخاصة جنوة والبندقية ونابولي هذه الأخيرة وكما قال عنها " صامويل واتسن " قد تحولت الى مركز للقرصنة شأنها في ذلك شأن مالطا وبذلك تجاوزت هذه الدويلات في مجال القرصنة كل المدن المتوسطية في نشاطها الخارج عن القانون .

Résumé

Cet article est une invitation à la découverte de parages inconnus, il s'agit de l'histoire des relations Algéro-Italiennes .

Trois siècles –début du XVI^e^ au premier tiers du XIX^e^ – de luttes acharnées, de guerres meurtrières, d'atrocités indescriptibles, entre un Maghreb décidé a se défendre, et une Europe mobilisée, engendérent des malheurs de toutes sortes .

A la tête de cette Europe hostile venait la péninsule Italienne Samuel Watson décrit en effet Naples sous le règne du duc d'Osune comme un centre de piraterie, tandis-que Gennes et Livourne pouvaient bien dépasser toutes les villes méditerranéennes en matière d'activités hors la loi .

إنّ حديثنا عن الصراع الجزائري الإيطالي خلال العهد العثماني، يجرّنا حتما إلى طرحه في إطار الصراع مع الدول الأوربية المتوسطية، لأنّ إيطاليا خلال هذه الفترة لم تكن سوى تعبيرا جغرافيا، وأنّ الدويلات الإيطالية كانت تشكّل امتدادا سياسيا لبعض الدول الأوربية.

كما أنّ الموقع الجغرافي للجزائر- تتوسط المغرب الإسلامي – وقربها من الجبهة الغربية للبحر المتوسط حتّم عليها الدخول في صراع مع الدول المسيحية المتوسطية وفي مقدمتها إسبانيا، وقد واجهت الجزائر بكلّ ضراوة تلك التحرّشات المسيحية المتكررة، ومن هذا المنطلق فإنّ حكّام الجزائر قد صانوا المحروسة عندما اشتدّت رغبة المسيحيين في اكتساحها، ولولا وقوف هؤلاء الرجال في وجه الغزاة الأوربيين وبالدرجة الأولى الأسبان وفي مقدمتهم شارل الخامس لذاقت الجزائر من أصناف العذاب الأسباني ألوانا، ولكان كرب المسلمين بها يشبه كرب مسلمي الأندلس(المدني ، ا،ت، 1986).

فبعد فشل عرّوج وإخوته في تخليص بجاية من يد الأسبان سنة 1512 بسبب قوة الحصون الأسبانية، وكثرة الجنود، تمكّن الإخوة من افتكاك جيجل عام 1514 من أيدي الجنويز الذين أقاموا بها قلعة لصيد المرجان عام 1513، وقد بلغ عدد الجنويين في جيجل آنذاك بنحو ستمائة فرد (Belhamissi, M, 1996).

وفي 1519 تمكّن خير الدّين من إلحاق الهزيمة بالحملة العسكرية الكبيرة التي قادها نائب حاكم صقلّية دون هيقو دي مونكادا،هذه الحملة كانت تتألف من نحو خمسة آلاف رجل (Haedo, F, D, DE Grammont, 1881).

وأمام هذه الحملات الإسبانية المتكررة، وفي هذه الأثناء وخاصة عندما أبرم شارلكان معاهدة **كمبري** سنة 1529، وهي المعاهدة التي ضمنت له مركزا متفوقا في أوربا وجعلته ينهي حربه مع فرنسا،أصبح خير الدّين يفكّر في إيجاد حليف له ضدّ الإمبراطور، ورغم هذا فإنّ خير الدّين لم يصرّح على ما يبدو عن نيته في التحالف إلا بعد مغادرته لمدينة الجزائر،بعدما استدعي من طرف السلطان العثماني سنة 1534، وهو في طريقه إلى الأستانة توقف بفرنسا حيث قابل الملك فرنسوا الأول، وقدّم له هدايا ثمينة، كما أعلن رسميا عن مسالمته لفرنسا(غطاس، ع، 1986).

ترتّب عن هذا اللقاء اتفاق الطرفين على توحيد الجهود ضدّ إسبانيا، فقام خير الدين في شتاء 1533، وفي 1534، وفي 1535 تنفيذا لتلك الخطة بمهاجمة السواحل والموانئ الإيطالية التي كبّدها خسائر جسيمة(غطاس، ع، 1986).

وفي شهر جويلية 1536 هدّد شارلكان إقليم بروفانس الفرنسي، وزحف عليه بجيش قوامه خمسون ألف رجل، وفي العام الموالي استنجد الملك الفرنسي

بالسلطان العثماني سليمان القانوني، الذي عبر مقدونيا إلى البحر الأيوني على رأس مائة ألف جندي، ووافاه هناك خير الدّين بأسطوله، وهدّد شواطئ إيطاليا، كما غزا جزيرة كورفو.

آل دوريا والجزائر أو "الذهنية المتوارثة" Dizionario, 1992

حملة آندري دوريا على شرشال:

عرف عن آل دوريا عداءهم الشديد للجزائر، فقد شارك أفراد من هذه العائلة الجنوية في حملات عديدة على الجزائر.

بعد نجاح خير الدّين في استرجاع حصن البينيون، تحمّس أكثر للجهاد، فاعدّ حملة من خمسة عشر غليوطة، وشنّ هجوما على السواحل الأسبانية، حيث تمكّن من إلحاق الهزيمة بالأسطول الأسباني في جزر البليار، وقد تأثر الامبراطور شارلكان بهذه الهزيمة، فكلّف الأميرال الجنوي أندري دوريا بشن حملة على الجزائر، وقد أبحر هذا الأخير من جنوة في جويلية 1531، مصحوبا بتسع وعشرين غليوطة، وألف وخمسمائة رجل، ولمّا أشرف على شرشال حاول مباغتتها، مستغلاّ انشغال الأسطول الجزائري، باستعداداته للهجوم على مدينة قادس، وقد تمكّن دوريا من إحراق تسع سفن جزائرية، غير أنّ السكان انقلبوا عليه بعد أن خرجوا من مخابئهم، كما وصلت في نفس الوقت نجدة متكونة من عشرين سفينة قدمت من مدينة الجزائر، فاضطر دوريا للتراجع والانسحاب نحو جزيرة مايورقا تاركا وراءه مئات الأسرى،وعددا كبيرا من القتلى (Belhamissi, M, 1996).

ومع ذلك فقد استمرّ دوريا في تكثيف نشاطه العدائي ضدّ الدولة العثمانية في شرق البحر المتوسط (Braudel, F, 1928).

حملة جيوفاني اندري دوريا على مدينة الجزائر (Dizionario,1992):

تواصلت التحرّشات الجنوية على الجزائر في عهد الملك الأسباني فيليب الثالث الذي حاول مباغتة الجزائر، بقيامه سرّا بإعداد حملة صليبية ضخمة ضمّت القوة البحرية الأسبانية، والبحرية البابوية، والبحرية الجنوية، وأسندت قيادة هذه الحملة للجنوي جيوفاني اندري دوريا ابن الأميرال اندري دوريا.

أبحر جيوفاني من جنوة في آوت 1601 على رأس أرمادة بحرية مشكلة من ثمان وستّون سفينة على متنها عشرة آلاف رجل، وقد ذكر دوريا وهو في طريقه لغزو الجزائر، أنّ هذه الحملة هي الأقدس على الإطلاق، وأنّ الله اختاره ليكون على رأسها لمحاربة "الشياطين" (Biblioteca, Vaticana, lettere, 1601).

وقد دعى من خلال رسالته هذه، والتي وجهها إلى حاكم جنوة(Biblioteca, Vaticana, Lettere 1601) كل الدول الأوربية إلى المشاركة في هذه الحملة، كما أنّ عباراته التي تضمنتها الرسالة كانت كلّها تعبّر عن الحقد الدفين التي تكنّه هذه العائلة تجاه الجزائر، كما ذكر أنّ الواجب يحتّم عليه تنفيذ وصية والده لغزو الجزائر، كما تضمنت رسالة جيوفاني وصية لأولاده بضرورة إعداد حملة وغزو الجزائر إذا فشل هو في ذلك، وإن دلّ هذا عن شيء فإنّما يدلّ على مدى الذهنية المتوارثة لهذه العائلة تجاه الجزائر.

ومعروف أنّ دوريا قد وضع خطّته لشنّ هجوم على ميناء الجزائر بإشعال النّار فيه بواسطة المتفجرات (con petardo) وبعد أن يزرع الفزع والهلع في النّاس،تلجأ قواته لتحرير الأسرى المسيحيين قصد مساعدته على إتمام مهمّته، إلا أنّ الأرمادة التي قادها دوريا سرعان ما عادت أدراجها، ورجعت من حيث أتت بعد أن تبين لدوريا أن التحصينات ستحول دون تنفيذ خطته.

وظلّت جمهورية جنوة في عداء مستمر مع الجزائر طيلة القرنين السابع والثامن عشر تقريبا، وقد جعلت من محاربة الإسلام والجزائر هدفها الأول والأخير.

ففي سنة 1794 وبسبب الهجمات المتكررة للبحارة الجنويز على البحارة الجزائريين، أمر الداي بتجهيز المراكب الجهادية، والاتجاه بها إلى سردينيا وجنوة،وقد تمكّن البحارة الجزائريين في حربهم ضد الجنويز والسارد من الاستيلاء على عشرة مراكب سارد وبعضها جنوي(الزهار أ، ش، 1980).

الحملات التوسكانية على عنّابة:

صمم دوق توسكانيا **فرديناند الأول** على تجهيز حملة لغزو عنابة، وقد أسند هذه المهمّة لفرسان القديس ستيفان.

ويعود استهداف بونة حسب **قارنييري**(Garnieri, G, 1960) إلى سببين رئيسيين:

أولا: أنّ بونة كانت تشكّل مصدر قلق للدويلات الايطالية، وتهديدا مستمرّا للمصالح التجارية لدوقية توسكانيا، ضف إلى ذلك فقدان جمعية فرسان القديس ستيفان لعدد معتبر من بحارتها في هذه المدينة.

ثانيا: تعدّ بونة سوقا رائجة لتجارة الأرقاء المسيحيين، لذلك كان الهدف من هذه الحملة تحرير أكبر عدد ممكن من هؤلاء الأسرى.

انطلقت حملة توسكانيا من ليفورنو في شهر سبتمبر 1607 بقيادة **سيلفيو بيكولوميني**، مشكّلة من تسع سفن من نوع غليوطة، وخمس حاملات أسلحة، وألفي رجل، ومئات المتطوعين.

وصلت الأرمادة التوسكانية إلى سواحل عنابة في الخامس عشر من سبتمبر، وشهدت المدينة دفاعا مستميتا، لكن نقص وسائل الدفاع مكّن القوات التوسكانية من اكتساح المدينة، ومحاصرة أماكن تواجد الأسرى، فتمّ تحرير العديد منهم، كما غنمت قوات بيكولوميني غنائم كثيرة، ولمّا سمع التوسكانيون بقرب وصول النجدة إلى عنابة تراجعوا وولّوا الأدبار.(Garnieri, G, 1960)

وفي شهر آوت سنة 1610 أعدّ الدوق **كوسمي** حملة جديدة تمكّنت من إلحاق الضرر بقرية صغيرة تقع بين تنس وشرشال.

ويبدو من المفيد أن نذكر بأنّ فرسان القدّيس يوحنّا بمالطة، وفرسان القديس ستيفان بتوسكانيا لميتوقفوا عن تعدّياتهم ومطاردتهم للسفن التجارية الإسلامية أو غيرها،رغم الهدنة الموقعة بين السلطان العثماني وأسبانيا.(غطاس، ع، 1986).

الجزائر في مواجهة التحالف المسيحي الأوربي:

شكّل الأسبان أرمادة عسكرية مسيحية في جويلية 1783،من القوات البرتغالية،والنابوليتانية،والجنوية،والتوسكانية(فرسان القدّيس ستيفان)،وفرسان مالطه،والبحرية البابوية (Belhamisi,M,1996)إضافة إلى القوات الأسبانية طبعا،وذلك للثأر من الجزائر التي ألحقت بهم هزيمة نكراء سنة 1775 (Venture de Paradis, 1983).

وضمّت هذه الأرمادة أربع سفن كبيرة، وست سفن فرقاطة، واثني عشرة سفينة من نوع شباك، وعشرة سفن صغيرة للمباغتة، وسفينة مدفعية، وأربعين زورقا، وقد انطلقت هذه الحملة من قرطاجنّة بقيادة بارشيللو.

وذكر **فونتار دو بارادي**(Venture de Paradis) أنّ رد فعل البحرية الجزائرية كان عنيفا جدّا، مما أجبر الأسبان على التراجع (Venture de Paradis,1983)

وبالرغم من الأزمة المالية التي كانت تعاني منها أسبانيا، فقد قرّر الوزير الأسباني **فلوريدا بلانكا** خوض غمار الحرب مجددا.

وفي سنة 1784 أعادت القوات المسيحية المتحالفة الكرّة من جديد لتدمير الجزائر، كما أصدر البابا **بيوس السادس** براءة بابوية أقرّ بموجبها منح صكوك غفران لكلّ المجنّدين في هذه الحملة.

ولمواجهة هذه الحملة الشرسة استخدمت البحرية الجزائرية المدفعية للحيلولة دون تقدّم القوات المتحالفة، مما جعل كل القذائف الأسبانية تسقط في الماء، ففشلت بذلك كل المخططات التي انتهجتها أسبانيا.

وذكر الزهّار واصفا هذه الحملة: فلمّا قدم الأسبانيول للمرّة الثالثة سنة 1198 أرسل مراكبه ومكث ثلاثة أيام، وفي اليوم الرّابع بعث اللنجور للقتال فخرج إليه المسلمون، وتلقوه باللنجور كذلك وتقاتلوا معه باللنجور، ومن الأبراج التي تصل منها الكورة، مقدار ساعتين وكان الحاج محمّد القبطان رحمه الله معهم أثناء القتال في زورق، ومعه زوارق صغار من غير مدافع تدعى "الشكايف" يرسلها القبطان وقت القتال، إمّا للتقدم أو للتأخر، أو لحمل الناس إذا تكسر مركب، ولتجر اللنجور الذي يسقط ، والقبطان دائما أمام اللنجور دخولا وخروجا وكذلك وقت القتال.

فلمّا نزل المسلمون للمرسى أنزلوا المجروحين لموضع الأطباء، ويدفن الأموات ثم يعطي القبطان سلطانيا ذهبا لكل رجل، وكان القتال صباحا ومساء، ويقيمون كل يوم هكذا مدّة القتال، وعندما يأتي وقت الخروج لملاقاة العدو، تجد النّاس يزدحمون على الركوب معهم، ولا يصل لذلك إلا الرجل الشجاع، وقد سمعت من أحد الحاضرين أنه وقت الخروج لملاقاة العدو، يصلّي النّاس صلاة الجنازة على الخارجين للحرب، ويضجّ النّاس بالدعاء، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلّم، ويخرج المجاهدون تصحبهم آلات الطرب والجواق كأنهم خارجون للنزهة،وهم مع ذلك يرون في كلّ قتال الأموات والمجروحين ومقطوعي اليدين والرجلين، ومن هو أعور العين أو معدوم العينين، وهم مع ذلك لا يلتفتون إلى ذلك ولا يتغشون منه، وأقام الأسطول على ذلك أياما، وتأكّد له أنه لا طاقة له على الجزائر فذهب.(الزهار، أ،ش، 1980).

ومهما يكن من أمر فإنّ علاقة الجزائر بالدويلات الإيطالية خلال الفترة العثمانية لم تكن كلّها حروب وصراع، وأنّ السفن الجزائرية لم تكن دائما عرضة لهجمات قراصنة إيطاليا، بل أنّ بعض هذه الدويلات قد ربطتها بالجزائر معاهدات سلم وصداقة، سمحت بالقضاء على العراقيل التي كانت تواجه نشاط البحّارة، والتجّار في البحر الأبيض المتوسط.

الهوامـــــش:

(1) المـدني (أحمـد توفيـق): محمّـد عثمـان باشـا داي الجزائـر(1766-1791) م.و.ك.الجزائر.1986.ص.8.

(2) Belhamissi (M),Marine et Marins d'Alger (1518-1830) T, 2.B.N.A.Alger.1996,p.5.

(3) Haedo (F.D), Histoire des Rois d'Alger. Traduite et Annotée par H. de. Grammont. Alger, Adolphe Jourdan.1881, pp.19-41.

(4) غطاس (عائشة): العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر

رسالة ماجستير،الجزائر،1986،ص.5.

(5) غطاس (ع): نفس المرجع،ص ص.5و6.

(6) عن تاريخ آل دوريا أنظر:

- Dizionario Biografico degli Italiani. Roma, 1992, pp.308-314.

(7) Belhamissi (M),Op-cit,p.27.

(8) Braudel (Fernand), « Les Espagnols et l'Afrique du Nord de 1492 à 1577 »in, R.A, 1928. pp.184-223 et 351-428.

(9) هو ابن الأميرال الجنوي آندري دوريا، ولد في جنوة سنة 1575، وقد تأثر جيوفاني بالحياة السياسية والعسكرية لوالده الأمر الذي يتبوأ هو الآخر مكانة في البلاط الملكي الأسباني.راجع:

- Dizionario..,Op-cit,pp.308-314.

(10) وصف الجزائريين بالشياطين (I Mandarsi).

(11) Biblioteca Apostolica Vaticana, URB-LAT,Lettere alla Republica di Genoa.

(12) الزهّار (أحمد الشريف):مذكرات نقيب أشراف الجزائر. تحقيق ونشر أحمد توفيق المدني. ش، و، ن.ت.ط2.الجزائر، 1980.ص.66.

(13) Garnieri (G),I Cavalieri di Santa Stefano. Pisa,1960,p.144.

(14) Garnieri , Ibid,p.144.

(15) غطاس (ع):سبق ذكره،ص،33.

(16) لقد أيّد البابا بيوس السادس هذه الحملة التي كان قد أمر بشنّها سنة 1780،إلا أنّ انهزام الأسبان أمام الأنجليز في قادس حال دون تنفيذها في هذه السنة،وقد ورد أيضا أنّ محادثات قد جرت سنة 1780 بين الأسبان والأنجليز بهدف مقايضة وهران بمضيق جبل طارق.راجع:

- Belhamissi (M),Op-cit,p.34.

(17) Venture de Paradis,Tunis et Alger au XVIII^{e} siècle.

Mémoires et observations rassemblés par Joseph Cuoq.Paris, 1983, p.263.

(18) Ibid,p.264.

(19) الزهّار:سبق ذكره،ص.33.